﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ [الأعراف: 75 - 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

تـوجُّـهُ المـلإِ إلى مُـحـاورةِ أتـبـاعِ الأنبياءِ والدُّعاةِ دليلُ إفلاسِهم

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وبذكرِ آلاءِ اللّهِ، ونهاهم عنِ الإفسادِ في الأرضِ، عدلَ الملأُ عن مجادلةِ صالحٍ عليه السلام إلى اختبارِ تصُلُّبِ الّذين آمنوا به في إيمانِهم، ومحاولةِ إلقاءِ الشَّكِّ في نفوسِهم، ولمّا كانَ خطابُهم للمؤمنين مقصودًا به إفسادُ دعوةِ صالح عليه السلام كان خطابُهم بمنزلةِ المحاورةِ مع صالحٍ عليه السلام، فلذلكَ فُصِلَت جملةُ حكايةِ قولِهم على طريقةِ فصْلِ جُملِ حكايةِ المحاوَراتِ، ثمَّ ذكرَ جوابَ الّذين استكبروا للَّذينَ استُضعِفوا إيذانًا بتصلُّبِ الّذين استكبروا على كُفرِهم وثباتِهم فيه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: الجماعةُ الّذين يجتمعون على رأي، فيملَؤون العيونَ رَواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا، والملأُ الرّؤساءُ، سُمّوا بذلك؛ لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إليه، ويُقال: فلانٌ مِلءُ العيونِ؛ أي: مُعظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأ عينَه ونفسَه من رؤيته، ويحتملُ أن يكونَ من أنَّهم إذا تمالَؤوا على أمرٍ تمَّ، والمِلْءُ مقدارُ ما يأخذهُ الإناءُ المتلئُ، ومالَأْتُهُ: عاونتُه وصرتُ من ملئِه؛ أي: جمعه، والملأُ صفةٌ غالبةٌ، وجمعُه أملاءٌ، وذهبَ بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ الملأ همُ القومُ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

الرّجالِ ليس فيهم امرأةٌ، والملأُ هنا هم كبارُ القومِ وقادةُ الرّأيِ فيهم الأحقُّ بأن يُعابَ موقفُهم[1].

2) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: الكِبرُ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ، والكِبْرُ: مُعظمُ الأمرِ، وكبُرَ الشّيءُ إذا عظُمَ، وأكبرتُه استعظمتُه، ويُقالُ للملوكِ والرّؤساءِ ووُجهاءِ القومِ: الأكابرُ، والكِبْرُ، والتَّكَبُّرُ، والاستِكبارُ تتقاربُ، فالكبرُ الحالةُ الّتي يتخصّصُ بها الإنسانُ من إعجابِه بنفسِه وتعاظُمِه على غيرِه، وذلك أن يَرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيرِه، وأعظمُ التّكبُّرِ التّكبُّرُ على اللهِ بالامتناعِ من قبولِ الحقِّ والإذعانِ له بالعبادةِ معاندةً وأنَفةً[2]، وهو المرادُ في الآيةِ.

3) ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾: الضَّعفُ خلافُ القوّةِ، وقد يكونُ في النّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحالِ، وقال الخليلُ ﷺ: الضُّعفُ بالضّمّ في البَدنِ، والضَّعفُ بالفتحِ في العقلِ والرّأيِ، وأجازَ بعضُ اللُّغويّين الصّيغَتين معًا في كلِّ وَجهٍ، وضَعُفَ عَنِ الشَّيءِ: عَجَزَ عَنِ احتمالِه، واستَضعَفَه: وَجَدَهُ ضَعيفًا أو جعلهُ ضعيفًا، فيُقالُ: استَضعَفتُه لِلَّذي يَتَضَعَّفُه النّاسُ، ويجعلونَه ضعيفًا، ويَتَجَبَّرون عليه في الدُّنيا لِلفَقرِ ورَثاثَةِ الحالِ[3]، والاستضعافُ في الآيةِ هو استضعافُ المؤمنين بسببِ فقرِهم وقلّةِ حيلتِهم، ويُراد منه ازدراءُ المستكبِرين للمُستضعَفين.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ حِوارًا حصلَ بين الملأِ المُستكبرين والمُستضعَفين؛ فقال السّادةُ والوجهاءُ من قوم صالحٍ الّذين استكبروا عنِ الإيمان باللّه واتّباعِ صالحٍ ﷺ لأهلِ المسكنةِ منَ المؤمنين به منهم: أتعلمونَ أنّ

محاورةُ المُستكبِرين للمُستضعَفين لا تنتهي إلّا بما يَهواه المستكبِرون

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملأ)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/415، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (ضعف).

صالحًا أرسله اللّه إلينا وإليكم؟ قال الّذين آمنوا من أهلِ المسكنة: إنّا بما أرسلَ اللّهُ به صالحًا مُصدِّقون مُقرّون، قال الّذين استكبروا عن أمرِ اللّه وأمرِ رسولِه صالحٍ: إنّا بالّذي صدَّقتم به من نبوّة صالحٍ، وأنَّ الّذي جاء به حقٌّ من عندِ اللّه جاحدون مُنكرون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ قراءة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ بإثبات الواو وحذفها:

الـقـراءةُ بحذفِ الـواوِ استئنافٌ بيانيٌّ، وبذكرِها نسقٌ على الكلامِ السّابق

قرأ ابنُ عامرٍ وحدَه في هذا المَوضع: (وَقالَ المَلَأُ) بإثباتِ الواو، وهي محذوفةٌ عندَ جميعِ القرّاء[2]، وبيانُ المعنى على القراءتَين؛ أنَّه على القراءةِ المشهورةِ بحذف الواو يكونُ الكلامُ إمّا اكتفاءً بالرَّبطِ المعنويِّ[3]، وإمّا على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ[4]، وبيانُه أنَّه لمّا أمرَ رسولُ اللّهِ صالحٌ قومَه بعبادة اللّه وحدَه، وجاءَهم بالنّاقة آيةً على رسالتِه تشوّفَتْ نفوسُ المُخاطَبين لمعرفة ما أجابَه قومُه، فعدلوا عن جوابِ صالحٍ ﷺ إلى سؤالِ المُستضعَفين منَ المؤمنين؛ لتَشكيكِهم في إيمانِهم، ولمّا كانَت محاورتُهم للمُستضعَفين بمنزلة إفسادِهم لدعوةِ صالحٍ ﷺ، وردًّا عليه، ناسبَ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ في مقامِ جوابِهم لصالحٍ ﷺ، وعلى قراءةِ ابنِ عامرٍ بالواو، من بابِ العطفِ نسَقًا لهذه الجملةِ على ما قبْلَها[5]؛ أي: قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: 73] ليكونَ إخبارًا بما قاله الملأُ بعدَ إخبارِ ما قالَه صالحٌ ﷺ لقومِه.

دلالةُ وصف الملإِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الذّمَّ؛ ليُؤذِنَ بأنَّ الملأ الكافرينَ كلَّهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/543.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.
(4) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.

كانوا مُستكبِرين، بما دلَّت عليه الصِّلةُ من أنَّ استكبارَهم كانَ معلومًا مشهورًا بين قومِه، ومِن أنَّهم استوجبوا الذَّمَّ بسببِه؛ لتفظيعِ استكبارِهم وتعاظُمِهم على عامَّة قومِهم واستذلالِهم إيّاهم، ولمّا كانَ الكِبرُ يقابَلُ به الضَّعفُ أشعرَ التّعبيرُ بالنّعتِ أنَّ الّذين آمنوا بما جاءَهم به صالحٌ عليه السلام هم ضعفاءُ قومِه، كما يحتملُ النّعتُ أن يكونَ للتّخصيص، فيكونَ من نعتِ المعرفةِ المخَصِّص، فيفيدَ أنَّ مِنَ الملأِ مَن آمنَ ومنهم مَنِ استكبرَ[1].

الكِبرُ يزيدُ من بشاعةِ الكُفرِ وقُبحِ الإنكارِ

من ناحية أخرى، فإنَّ اختيار طريقِ الموصوليَّةِ في وصْفِهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ووصْفِ الآخرين بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ لما تومئُ إليه الصِّلةُ من وجْهِ صدورِ هذا الكلام منهم، بمعنى: أنَّ استكبارَهم هو الّذي صرفَهم عن طاعةِ نبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنينَ هو الّذي لم يُسِغْ عندهم سبقَهم إيّاهم إلى الخيرِ والهدى[2].

علَّةُ كُفرِ ثمودَ الكِبرُ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاستكبارِ لا الكُفرِ:

عُبِّرَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، ولم يقُل: (الّذين كفروا) لنُكتتَين: إحداهما بيانُ سببِ كفرِهم وسُؤالِهم المؤمنين المُستضعَفين سؤالَ الاستهزاءِ والسّخرية الّذي لا يصدرُ إلّا عن المُستكبِرين في قولِهم: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، والثّانيةُ لحسنِ التّقابلِ لقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

إذا استحوذَ الكِبْرُ على الملأِ أهلكَهم ومَن تحتَهم

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾:

يحتملُ أن تكونَ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ للطَّلبِ، والمعنى: طلبوا الهيبةَ لأنفسِهم، وهو الظّاهرُ، أو يكونَ ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ بمعنى: كبُروا؛ أي: كبَّرهم كثرةُ المالِ والجاهِ وأعظمَهم، فيكونَ على هذا كبُرَ واستكبرَ بمعنًى، مثلَ: عجِبَ واستعْجَبَ[3].

إذا اقترنَ المالُ والجاهُ بالفسادِ القلبيِّ ولَّدَ الاستكبارَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

فائِدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

مَنِ استكبرَ عنِ الحقِّ استكبرَ عن كلِّ شيءٍ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ لإفادةِ العمومِ؛ للإشعارِ باستغراقِهم في الاستكبارِ، والمعنى: استكبروا عنِ الإيمانِ باللهِ، وعن عبادتِه، وعنِ الإيمانِ بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، وعنِ اتّباعِه، وعنِ الإيمانِ بمعجزةِ النّاقةِ وغيرِها ممّا جاءَ به صالحٌ عليه السلام، فمَنِ استكبرَ عنِ الإيمانِ باللهِ ورسولِه استغرقَه الاستكبارُ، فأفادَ حذفُ المُتعلَّقِ العمومَ والإيجازَ، وقد قدّرَ بعضُ المفسّرين مُتعلَّقَ الفعلِ لبيانِ المعنى وإيضاحِه[1].

معنَى اللّامِ في قولِه ﴿لِلَّذِينَ﴾ وأثرُها الدّلاليُّ:

تأثيرُ القولِ في النّاسِ حالَ حضورِهم أقوَى

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾ لتعديةِ فعلِ القولِ، وهي لامُ التّبليغِ؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين استُضعِفوا كانوا سامعينَ قولَ الّذين استكبروا، وكانوا حاضرين معهم؛ فإنَّ تأثيرَ القولِ في النّاسِ حالَ الحضورِ أقوَى[2].

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ للمفعولِ:

الاستضعافُ وصفُ ذمٍّ للفاعلِ لا للمفعولِ

لمّا جاءَ اللّفظُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ دلَّ على وجودِ المقابلِ الّذي استُضعفَ، وهمُ الّذين استكبروا الّذين كانوا يستضعفونَهم ويستحقرونَهم، فالاستضعافُ ليس فعلًا صادرًا عنهم بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صفةَ ذمٍّ في حقِّهم، بلِ الذّمُّ عائدٌ إلى الّذين يستحقرونَهم ويستضعفونَهم، والمعنى: للّذين استضعفَهم رؤساءُ الكفّار واستذلّوهم، والقصدُ منَ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ تحقيرُ الفاعلِ؛ للإشعارِ بأنَّه لا يستحقُّ أن يُذكرَ في مقامِ فعلِ الاستضعافِ والاستحقارِ، كما دلَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/542، والواحديّ، الوسيط: 2/381، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/223.

على أنَّ المؤمنين ليسوا ضعفاءَ في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ استضعافَهم لم يكن وصْفًا دائمًا لهم[1].

توجيهُ إعرابِ البَدلِ في ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلًا ممّا قبلَه لتمام الإيضاحِ والبيانِ في المرادِ منَ الّذين استُضعِفوا، ويحتملُ: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ أن يكونَ بدلَ الكُلِّ منَ الاسمِ الموصولِ (الّذين)، إن كان ضميرُ ﴿مِنْهُمْ﴾ يعودُ إلى ﴿قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: لمَن آمنَ من قومِه، ويدلُّ أنَّ استضعافَهم كان مقصوراً على المؤمنين، وكانَ الَّذينَ استُضعِفوا قِسمًا واحِدًا، ويحتملُ أن يكونَ بدلَ البعضِ، إن كان الضّميرُ يعودُ إلى الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، فلم يكنِ الاستضعافُ مقصوراً عليهم، ودلّ أنَّ المُستضعَفين كانوا مؤمنين وكافرين، والأوَّلُ هو الوجهُ، إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطابِ أوّلاً إلى جميع المُستضعَفين مع أنَّ المجاوبةَ مع المؤمنين منهم، كما أنَّ تكريرَ الجارِّ يومِئُ إلى شدّةِ الاتِّصال وتمامِه، على أنَّ الاستضعافَ مُختصٌّ بالمؤمنين[2].

المؤمنون هم المُستضعَفون على البدلِ الكلّيّ، أو بعضُهم على البدلِ الجزئيّ

فائدةُ الطِّباقِ بين الاستكبار والاستضعاف:

بين ذكرِ المُستكبِرين والمُستضعَفين طباقٌ؛ فالكِبْرُ ضدُّ الضّعفِ، والطِّباقُ من وجوه تحسينِ الكلامِ البليغِ، وفائدتُه في هذه الآيةِ: تأكيدُ صيغة المبنيّ للمفعولِ من أنّ المرادَ بالمُستضعَفين المُستضعَفونَ مِن وِجهةِ نظرِ المُستكبِرين، لا أنَّهم كذلك على الحقيقةِ، والمعنى: استضعفوهم واستذلّوهم[3]، ولمّا أطلقَ الاستكبارَ والاستضْعافَ، ولم

استضعافُ الآخرين مسلكُ الجبابرةِ لبلوغِ غايةِ الاستكبارِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/20، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/20، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

يقيّدْه، أفاد الإطلاقُ استكبارَ الملأِ مِن كلِّ الوجوهِ على سبيلِ الذّمِّ للملأ، واستضعافَهم المؤمنين، واستذلالَهم لهم مِن كلِّ الوجوهِ.

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾:

الحربُ النَّفسيَّةُ من أدواتِ المُستكبِرين في مجابهةِ أهلِ الحقِّ

جاءَ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ على طريق الاستفهامِ المجازيِّ الإنكاريِّ، ليُفيدَ سُخريةَ الملأِ الّذين استكبروا منَ الّذين استُضعِفوا واستهزاءَهم واستخفافَهم بهم، كما يفيدُ تهكّمَهم برسالةِ صالحٍ عليه السلام.

وأجازَ رشيدُ رضا أن يكونَ الاستفهامُ حقيقيًّا، ووَجْهُه أنّهم سألوهم عنِ العلم بأنَّه مُرسَلٌ؛ لارتيابِهم في اتِّباعِهم إيّاه عن علمٍ بُرهانيٍّ، وتجويزِهم أن يكونَ اتّباعُهم لصالحٍ عنِ استحسانٍ ما، وتفضيلٍ له عليهم، واختيارٍ لرياستِه على رياستهم[1]. والأقربُ أن يكونَ الاستفهامُ مجازيًّا؛ للإنكارِ على الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم؛ لتشكيكِهم فيما آمنوا به، لئلّا يصدِّقوا صالحًا ويتّبعوه، ويدلُّ عليه إصرارُهم على تكذيبِ صالحٍ بعدَ إقرارِ المُستضعَفين بإيمانِهم به.

فائدةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في جملة ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾:

الجمعُ بين التّشكيكِ في الحقِّ والسُّخريّةِ في الحِوارِ منهجُ المُستكبِرين

لمّا وقعَ الاستفهامُ الإنكاريُّ على لفظ العلمِ في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾؛ دلَّ على أنّ الملأَ الّذين استكبروا قصدوا تشكيكَ الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم مع سُخريَّتِهم واستهزائِهم بهم؛ لدلالة الإنكارِ على نفيِ العلم[2]، فهم جمعوا بين الاستهزاءِ النَّفسيِّ، والتَّشكيكِ في المعلومِ منَ الحقِّ، وهذه فائدةٌ عزيزةٌ في بيانِ خطورةِ حِوارِ المُستكبرين، فهم ليسوا أهلَ علمٍ ليتجرّدوا للعلمِ وحدَه، ولا سفهاءَ ليسخروا فحسبُ، بل جمعوا بين السُّخرية والتَّشكيك، وهذا من أشدِّ أنواعِ الحِوارِ خطورةً على المؤمنين.

(1) رضا، تفسير المنار: 8/449.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/384، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

نُكتةُ تأكيدِ الجملة الاسميّةِ:

الاستهزاءُ بالعُقولِ تابعٌ لاستضعافِ الشَّخصيّات

جاءَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياق الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ بهدفِ إشعارِ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا أنَّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام يحتاجُ إلى تثبُّتٍ وتأكيدٍ وتقريرٍ؛ ليكونَ طريقًا إلى تشكيك الّذين آمنوا، ويوحي هذا التَّأكيدُ برائحةِ الاستهزاءِ بالعقولِ، بعدَ استضعافِ الشَّخصيّات، وهو ما يُرشِّحُ معنى الإنكارِ الاستهزائيِّ في الاستفهامِ.

نِكاتُ استعمالِ ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دون (رسولٌ):

تكشفُ الألفاظُ عن خفايا النُّفوسِ وأخلاقِ الرِّجال

آثرَ النَّظمُ التّعبيرَ بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دونَ (رسول)؛ لمجموعةٍ منَ النِّكات:

الأولى: تشكيكُ المُستضعَفين في رسالةِ صالحٍ عليه السلام.

الثّانية: الكشفُ عمّا في طوايا نفوسِهم من كراهة إثباتِ الرِّسالة لصالحٍ عليه السلام، إذ إنَّ لفظَ (رسول) أثبتُ دلالةً من ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ لما فيه من معنى الاسميّة، وهو أثبتُ المشتقّاتِ، و(مُرسَل) اسمُ مفعول منَ الفعل (أُرسِل)، ففيه حدوثٌ[1].

الثّالثة: الإشعارُ بأنَّ صالحًا عليه السلام أقلُّ من أن يكونَ مُرسَلًا، فما بالكم أن يكونَ رسولًا قدِ استقرَّ أمرُ الرِّسالةِ فيه!

الرّابعة: دلالةُ اسمِ المفعولِ على أوَّليَّةِ الإرسالِ، بخلافِ (رسول) فهو يدلُّ على رسوخه.

الخامسة: الاستهزاءُ بصالحٍ عليه السلام، وتعظيمُ أن يكونَ اللّهُ تعالى قد أرسلَه إليهم.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/387.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّهِۦٓ﴾:

اتِّهامُ نبيِّ اللهِ باختراعِ الرِّسالةِ واختلاقِ النُّبوَّة

أفادَت إضافةُ (ربّ) إلى الضَّميرِ العائدِ على صالحٍ عليه السلام التّخصيصَ، فكأنَّ المضافَ مُختصٌّ بِصالِحٍ، فَلَم يَقولوا: (مِن رَبِّنا) ولا (مِن رَبِّكُم)؛ لعنادِهم وعُتوِّهم في الكفر بسببِ استكبارِهم[1]، ولجعلِ صالحٍ عليه السلام مُنفرِدًا فيما ادَّعاه، فكأنَّهم قالوا: إنّ ربَّه الّذي أرسلَه قد يكونُ مِن اختراعِ فكرِه، وأباطيلِ وهمِه!

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا﴾:

كَسرُ المُتوقَّعِ تُحقِّقُه قوَّةُ الإيمانِ وتُعزِّزُه الثِّقةُ بالمُرسلين

لمّا سألَ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ ؟! تشوّفَ السّامعُ إلى معرفةِ جوابِ المُستضعَفين الّذين يغلبُ في العادة أنْ لا يخالفوا الّذين استكبروا، فجاءَ الجوابُ جملة استئنافيّةً ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كسرًا للمُتوقَّعِ وإثباتًا لعُلوِّ الدّين في نفوسِ المُستضعَفين؛ بإعلانِ إيمانِهم، ورفعِ صوتِهم في وَجهِ الاستكبارِ.

نُكتةُ العدولِ بالحديثِ عن الإيمان بدل الإرسال:

الاستضعافُ لا يعني جهلَ المُستَضعَفِ، بل يعني حماقةَ المُستَضعِفِ

سألَ الملأُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ المُستضعَفينَ عن علْمِهم برسالةِ صالحٍ عليه السلام لا عن إيمانهم به، فلمّا أجابوهم عن إيمانِهم به في قولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كان الجوابُ على خلاف مُقتضَى الظّاهر، فعدلوا به عن الجوابِ الموافقِ للظّاهرِ الّذي هو نَعم، إلى الجوابِ البليغِ السَّويِّ الموافقِ لمُقتضى الحالِ لمقاصدَ متنوّعةٍ هي[2]:

أوّلًا: التَّنبيهُ على أنَّ إرسالَه أظهرُ من أن يشُكَّ فيه عاقلٌ، ويَخفى على ذوي رأيٍ، فهو مكشوفٌ مسلَّمٌ لوضوحِه وبيانِه، حيث أوردوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

صِلةً للموصول الّتي تكونُ جملةً معلومةَ الانتسابِ عند المُخاطَبين، والمعنى: لا كلامَ في إرسالِه، وإنّما الكلامُ في وجوب الإيمانِ به، فنخبرُكم أنّا به مؤمنون.

ثانيًا: الإيذانُ بمسارعتِهم إلى تحقيق الحقِّ، وإلى إظهارِ ما لهُم منَ الإيمانِ الثّابتِ المستمرِّ الّذي تُنبِئُ عنه الجملةُ الاسميّةُ.

ثالثًا: إرشادُ الّذين استكبروا إلى أنَّ أمرَ إرسالِه منَ الظّهورِ بحيثُ لا ينبغي أن يُسألَ عنه، وإنّما الحقيقُ بالسّؤال عنه هو الإيمانُ به.

رابعًا: لمّا أثبتوا إيمانَهم بما أُرسِلَ به صالحٌ ﷺ استلزمَ علمَهم بالأمرِ؛ أي: إنّهم علموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا له السّلطانُ على عقولهم وقلوبهم، إذ آمنوا به إيمانًا صادقًا كاملًا، فالإيمانُ يستلزمُ العلمَ واليقينَ، والمعنى: أنّهم لمّا سألوهم عن علْمِهم به أجابوهم بما يقتضي العلمَ والإيمانَ؛ أي: كأنّهم قالوا: بل علمنا أنّه مُرسَل من ربّه، وإنّا بما أُرسِل به مؤمنون، فتَضَمَّنَ كَلامُهُمُ العِلمَ بأنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ الله تعالى، فطويَ المهمُّ، وذُكِرَ الأهمُّ، وهو منَ الإيجازِ البليغِ؛ لدلالة المذكور على المحذوف[1].

خامسًا: لمّا تلقّى المؤمنون الكافرينَ بغير ما كانوا يترقّبونه منَ الجوابِ، فيحتملُ أن يكونَ منَ الأسلوب الحكيمِ، إنْ كان من قولهم المحكيِّ، إذ سألوهم عن صحّةِ الرِّسالةِ فأجابوهم بما هو أولَى، وهو الإيمانُ بها، واستبعدَه ابنُ عاشور؛ لأنَّ هذه الجملةَ من حكايةِ القرآنِ لا منَ المحكيّ من كلامهم، إذ لا يُظَنُّ أنَّ كلامَهم بلغَ منَ البلاغةِ هذا المبلغَ[2].

سادسًا: في التّعبيرِ دلالةٌ على أنَّ مَن مُكِّنَ له منَ العلم بأسبابٍ جُعلَتْ له يصلُ بها إلى العلم، لم يُعذَرْ بجهلِه في ذلك بعدما أُعطيَ أسبابَ العلم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) البروسويّ، روح البيان: 3/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482.

فائدةُ التّوكيد بـ (إنَّ) في جملة ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ﴾:

تأكيدُ الإيمانِ بوحيِ الله تعالى

أفادَت (إنَّ) تأكيدَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به صالحٌ ﷺ وتقريرَه؛ لإزالة ما توهَّموه من شكِّ الّذين استكبروا في صحَّة إيمانهم[1].

العُدولِ عن الجوابِ بالفعليَّةِ إلى الاسميّة:

استضعافُ المُستكبرين لا يعني ضَعفَ إيمانِ المُستضعَفين

لمّا كانَ سؤالُ المُستكبرين بالجملةِ الفعليّة: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كان الظّاهرُ أن يكونَ الجوابُ بالجملةِ الفعليّةِ أيضًا، ولكنَّ الّذين استُضعفوا عدلوا إلى الجواب بالجملة الاسميّة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثَّباتِ، فلم يَتركوا للّذين استكبروا مَطمَعًا في تشكيكِهم، بلهَ صرفَهم عنِ الإيمانِ برسولِهم[2].

براعةُ الجوابِ في ذكرِ الدَّليلِ على الإيمانِ:

تركُ الجوابِ البليغِ إلى الأبلغِ فصاحةٌ صادرةٌ عن إيمانٍ

أشعرَ مجيءُ الصّلةِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ سببَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به؛ هو أنّهم آمنوا بأنّه مُرسَلٌ من ربّه لدلالة ﴿أُرْسِلَ بِهِۦ﴾، فلمّا آمنوا بهِ آمنوا بجميعِ ما أُرسِل به، وهذا جوابٌ أبلغُ ممّا طلبه المُستكبِرون، فهم سألوا عن علمهم بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، فأجابوا عن ذلك بذكر الدَّليلِ، وهو الإيمانُ بما أُرسِل به، ولمّا كانت جملةُ الصِّلة معلومةَ الانتسابِ بين المُتخاطِبينَ دلَّ أنَّ الّذين استكبروا كانوا يعلمونَ إيمانَ المُستضعَفين قبلَ أن يسألوهم، وأنّهم إنّما سألوهم استهزاءً وسخريَّةً، لا ليسمعوا جوابَهم، الّذي كسرَ توقّعَهم.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿مُؤْمِنُونَ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرِّسالةِ والرَّسولِ

قُدِّم معمولُ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾؛ فلم يقُل: (إنّا مؤمنون بما أُرسِل به)؛ لتخصيصِ إيمانِهم بما أُرسِل به صالحٌ ﷺ، وللاهتمامِ به، تعظيمًا لشأنِ الرّسالةِ وما أُرسِلَ به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

دلالةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ بأداةِ (ما):

عُبِّر بأداة (ما) الموصوليّةِ الّتي هي أعمُّ منَ (الّذي)؛ للإيذانِ بإيمانِهم بعمومِ ما أُرسِلَ به وتصديقِهم له، كما أنَّ الصِّلةَ تضمَّنَت إدماجًا بتصديقِهم بكلِّ ما جاءَ به صالحٌ من نحوِ التَّوحيدِ وإثباتِ البعثِ.

الإيمانُ بعمومِ الرِّسالةِ يُلائِمُه استعمالُ أداةِ العموم

دلالة المبنيّ للمفعول في الفعل ﴿أُرۡسِلَ﴾:

لمّا كان سؤالُ الملأ الّذين استكبروا بصيغةِ اسمِ المفعول في قولهم: ﴿مُرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ ناسبَ أن يكونَ جوابُهم بصيغة الفعل المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿أُرۡسِلَ﴾، وللإشارةِ إلى الإيمانِ بالمُرسِلِ سبحانه، دون النَّصِّ على ذكرِه، فلم يقولوا: (إنّا بما أُرسِلَ به من ربِّه)؛ كما سيأتي.

مناسبةُ الجوابِ للجوابِ إسكاتٌ لأفواهِ الخراب

نُكتةُ حذف قيدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ في قول المُستضعَفين:

لمّا كان قولُ المُستكبرين ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ عنادًا وعتوًّا في كفرِهم كما تقدَّم[1]، لم يذكرْه المُستضعَفونَ، ولم يتابعوهم على قولِهم، مع أنَّ الّذي يقتضيه ظاهرُ الأمرِ النَّصُّ عليه؛ وذلك للإشعارِ بقُبحِ قصدِ المُستكبرينَ وسوءِ سريرتِهم، فدلَّ طويُّ اللَّفظِ على طويِ قصدِ المُستكبرين، ففيه دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ حاوروا المُستكبرين بعلمٍ متينٍ، وأسلوبٍ حكيمٍ.

طَيُّ اللَّفظِ لإخمادِ مقاصدِ الباطلِ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ عن إيمانِ المؤمنين بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمنين أرادوا إثباتَ أنَّهم على الإيمانِ بقوَّةٍ وجدارةٍ، وأنَّ إيمانَهم نابعٌ من أفعالِهم القلبيّةِ والسّلوكيّةِ، لا مجرَّدَ إيمانٍ عابرٍ، وفي ذلك تحدٍّ صارخٌ للمُستكبرين في التَّشكيكِ في علمهم الصّادرِ عن إيمانهم.

تحدّي المؤمنين للمستكبرين من آثارِ الإيمانِ الرّاسخِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

دلالةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

الإشعارُ بملازمةِ الكبرِ لأصحابِه المعانِدين

كان مُقتضَى الظّاهر أن يعبَّرَ بالضّمير، فأُعيد الموصولُ مع صلتِه إيذاناً بأنّهم قد قالوا ما قالوه بطريقِ العتوِّ والاستكبارِ، وأنَّ استكبارَهم هو الّذي منعَهم منَ الانقيادِ إلى الحقِّ، وجعلَهم مُتمسّكين بكفرِهم ثابتين عليه[1]، ولبيانِ أنَّ استكبارَهم بقيَ مُلازِمًا لهم بعد جوابِ المُستضعَفين، وأنَّهم في مبدأِ الحِوارِ وأثنائه مُستكبرون.

دلالةُ التّأكيدِ:

ثباتُ الكُفرِ دليلُ رسوخِ الإيمانِ

أفادَ إيرادُ كلمةِ التّحقيقِ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تحقُّقَ ثباتِهم على الكفرِ، وأنّهم قالوه عن عقيدةٍ ثابتةٍ تامَّةٍ، وصدقِ رغبةٍ؛ للتّشكيكِ في إيمانِ المُستضعَفينَ[2].

سِرُّ استعمالِ (الّذي) دون (ما):

يصدُرُ الجوابُ عنِ العلمِ والأخلاقِ، والنَّظمُ يُصدِّقُ ذلك أو يُكذِّبُه

تقدَّم جوابُ المؤمنين بأداة (ما) الدّالّةِ على العمومِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، لكنَّ النَّظمَ عدلَ عنِ التزامِ استعمالِ (ما)، وآثرَ استعمالَ الاسمِ الموصولِ الصَّريحِ، فقال: ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك لِبيانِ أنَّهم كفروا بشيءٍ معلومٍ لديهم، وأمّا جوابُ المؤمنين فهو يستوعبُ ما هو أعمُّ من ذلك بكثيرٍ، فأشعرَ النَّظمُ أنَّ كلًّا أجابَ بحدِّ علمِه، ومَرمَى فكرِه، ومدى تصوّرِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصول وصِلتِه:

استكبارُ الكافرين عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ

في قوله تعالى ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أشعرَ التّعبيرُ بصلة الموصولِ أنَّ سببَ كفرهم بصالحٍ عليه السلام تركّبَ من أمرين بعدَ إيمانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.
(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

الّذين استُضعفوا، الأوّلُ: هو استكبارهم عنِ الإيمانِ، والثّاني: هو استكبارهم عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ، فحملتِ الأنفةُ رؤساءَ القومِ على مناقضةِ المؤمنين في مقالتِهم، واستمرّوا على كفرهم[1].

العدول عن مادّة (الإرسال) إلى لفظ (الإيمان):

ظهورُ معالمِ التّحدّي الشّخصيِّ في جوابِ المُستكبرين

كان جوابُ الكفرة ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على طريقِ المقابلةِ لقول الّذين استُضعفوا، وهذه المقابلةُ تقتضي أن يقولَ (أُرسِلَ به) دون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فعُدلَ بالكلامِ عن مُقتضَى الظّاهر، فوُضِعَ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ من حيث المعنى مَوضِع ﴿أُرْسِلَ بِهِۦ﴾؛ لِما في لفظِ المقابلة ﴿أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ من إثبات رسالتِه، وهم يجحدونها، فبالغوا في التّحرُّز حذرًا منَ النُّطقِ بثبوت الرّسالةِ؛ مبالغةً في عُتوِّهم وغَيِّهم، وليكونَ الرَّدُّ باللَّفظِ المذكور: ﴿بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أعَمَّ، فقَصَدوا الرَّدَّ على جميع ما آمنَ به المُستضعَفونَ، لَمّا جَعَلَهُ المُؤمِنونَ أمرًا مَعلومًا وأخَذوهُ مُسَلَّمًا.

ولبيانِ وجهِ استكبارِهم في التَّعاملِ مع المؤمنين، فهم يرونَ أنفسَهم أرفعَ من أن يُؤمِنوا بإيمانِ المُستضعَفين.

فنُّ الطِّباقِ بين لفظَيِ الإيمانِ والكفرِ:

المستكبرُ يُخالف لنَيلِ المكرماتِ وما هو بنائلِها

كما أنَّ التّعبيرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيه إظهارٌ لمخالفتِهم للّذين استُضعفوا، بما يُشعر به لفظُ ﴿ءَامَنتُم﴾ و﴿كَٰفِرُونَ﴾ من معنى الطِّباقِ[2]، أي: على جهة الضِّديَّة، فإنَّ مقتضى الاستكبار مخالفةُ الضّعفاءِ، فهم أرادوا مناوأتَهم ومخالفَتهم، ظنًّا منهم أنَّهم بذلك ينالون مزيَّةً ويُحرزون فضيلةً، أو يتخلَّصون من رذيلةٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/453.

اتِّـفـاقُ صيغِ المقابلةِ دليلُ المجابهةِ

علَّةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعلِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ قولَهم صدرَ عنهم على وجهِ التَّحدّي في مجابَهةِ قولِ المؤمنين: ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾، فأتى كلامُهم تصدّيًا ومناكفةً ومجابهةً.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»